أهمية دراسة تراثنا الجغرافى

"دراسة ميدانية"

أ . عبد الله حمد الحقيل

تحتل مؤلفات الجغرافيين القدامى مئات الكتب والمخطوطات التى حازت إعجاب الكثير من العلماء والمستشرقين ، ومعظمها غير متوفر فى المكتبات العربية والاسلامية . ولما كان علم الجغرافيا الحديث يتشعب مجالاته وقواعده واهتماماته ، أضحى من العلوم الأساسية للدراسات الحديثة ، وبخاصة ما يتصل منها بالإنسان والعلوم الإنسانية . ومن الضرورى العودة إلى الوراء قليلا لدراسة أمثال هذه الدراسات التى تحوى بالإضافة إلى معلوماتها الوافرة ، جهداً متنوعاً ومتعدداً ، ناهيك عن استغلال بعض المستشرقين لما ساد العالم الإسلامي من ركود فى العصر الحديث ، وراحوا يأخذون ما طاب لهم ، ويحرفونه تبعا لأمزجتهم السياسية والدينية حتى يخدم أغراضهم الأخرى للتأثير على الإسلام والمسلمين .

ومن هذا المنطلق والأسباب التى أدت بنا إلى الظهور بصورة غير حقيقية لدى شعوب العالم الغربى بالذات ، وجب علينا الاهتمام بدراسة الجهود الجغرافية الأولى ، التى بذلها وقام بها العلماء القدامى من أسلافنا ، وإن كان هذا الاتجاه سوف يدفعنا بالضرورة إلى دراسة تاريخية للجغرافيا ، وبنيتها الأولى ؛ ولذا يمكن أن يكون تاريخ الجغرافيا علما قائما بذاته يدرس فى جامعاتنا الاسلامية على أسس موضوعية ، وعلى منطلق واقعى ، وإعادة النظر فى المصادر الأصلية لتلك الدراسة الهامة . ويمكن أن يكون الاتجاه مقسما تقسيما موضوعيا ملازما للتقسيم الزمنى لمثل هذه الدراسات ، إن كتب لها أن توضع كدراسة جديدة فى اقسام الجغرافيا ، وهذا التقسيم يمكن أن يتم على الأساس الآتى :

أولا : التاريخ الجغرافى القديم .
ثانيا : التاريخ الجغرافى الوسيط .
ثالثا : التاريخ الجغرافى الحديث والمعاصر .

أ : التاريخ الجغرافى القديم :

وهذه الدراسة تعتبر اتجاها للمزج بين الدراسات الأثرية والتاريخية والجغرافية والرحلات فى آن واحد . ومن المعروف أن ما يتناقله المشتغلون فى حقل الدراسات الجغرافية تنصب جهودهم فى المقام الأول على الدراسات اليونانية ، وبطليموس بصفة خاصة ، وذلك نابع من أمرين اثنين :

أولهما : تسجيل ما ورد فى دراسات اليونان والرومان فقط ، يجعل صفة الاستمرار والشهرة عامل من عوامل السيادة .

ثانيهما : السيادة السياسية لتلك الحضارة فى التاريخ القديم ، بالاضافة إلى أن ظهور الدين الاسلامى مع وجود القوة العربية لم يكتب لها فى البدايات الأولى الرسوخ حتى بعد ظهور الاسلام .

والعامل السلبى الذى لم يجعل للدراسات الجغرافية العربية والإسلامية مركزا أو ظهور رأى فى التاريخ القديم ، هو عدم وضوح الصورة فى هذه الفترة أو تسجيلها ، وهذا بالرغم من الحضارة العربية الاسلامية ، التى سادت وتأصل تراثها القوى والذى أشار إليه القرآن الكريم من خلال رحلة الشتاء والصيف مثلا ، أو من خلال قصص الأنبياء الذين عاشوا على مسرح الأرض العربية أو من خلال العلاقات الاجتماعية السائدة فى تلك الفترة .

ولعل الاتجاه إلى دراسة « الدروب التجارية » ، أو العلاقات الاقتصادية أو الجبال والسهول والوديان التى عرفها العرب فى تلك الفترة ، خير دليل يمكن به معرفة أثر الجغرافيا

العربية مسرحا وإنسانا على مجريات الأمور بين الامبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية واليونانية ، والصراع الدائر بين هؤلاء وهؤلاء ، ومن أكبر العوامل على أهمية دراسة مسببات هذا التنافس ، ولا شك أنه يتجه إلى الجغرافيا السياسية ، ـ كتعبيرنا الحديث ـ بالاضافة إلى النواحى الاقتصادية والبشرية لهذا التنافس .

ب : ثم جاء الاسلام ليشرق بنوره على الأرض العربية وتظهر مرحلة جديدة ومؤثرة على الحياة بصفة عامة ، وعلى الحضارات بصفة خاصة ، ولتتبلور على السطح حضارة جديدة لعبت على مسرح الجغرافيا اجتماعيا وطبيعيا ، ومزجتها بالروح والأسلوب ، تلك هى الحضارة الإسلامية ، وأتى هذا العامل الحاسم لتدخل الجغرافيا فى العصور الوسطى مرحلة جديدة ، كما يحلو لدارسى التاريخ تسميتها . وهنا يمكن أن نطلق على ذلك التاريخ الجغرافى الوسيط .

وكانت هذه الفترة من أبهى وأروع ما أنتجته الحضارات على مر عصور التاريخ وامتزجت فيها عوامل البناء الإنسانى ، من مادى وروحى ، ومحت مع ظهور الاسلام حضارات اتجهت اتجاهاً خاطئاً فى معظم الأحيان ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وانضم تحت راية الاسلام أمم كثيرة وحضارات متنوعة ، نتج عنه بالضرورة اتجاه نحو التفكير فى بلورة أسلوب جديد للحياة بصفة عامة ، وتفاعلت شعوب الشرق والغرب فى بوتقة واحدة ، وانكب العلماء على الدراسات المتنوعة ، وظهرت جهود متعددة وكانت الجغرافيا أحد هذه الفروع .

والمشكلة التى تواجه الدراسات فى مثل هذا الفرع حاليا هى النظر إليها على أنها مجرد تراث موجود ، وثمرة من ثمار الحضارة العربية الاسلامية .

مع العلم بأننا إذا أخذنا الأمر مأخذا آخر بالمقارنة مع الدراسات التى ظهرت فى العالم الخارجى عن نطاق الواقع الاسلامى فى أوروبا الوسطى ، نجد أن الأوربيين قد أخذوها للاستفادة والتطوير ، أما العرب والمسلمون فقد أخذوها واهتموا بها على أنها ميزة من مميزات ما أتى به الدين الاسلامى الحنيف ولم يحاولوا تطويرها .

إن المشكلة التى تواجه العلماء فى العصر الحاضر ، هى عدم بذل الجهد للتوفيق والتطوير بين نتاج الحضارة الاسلامية وبين التطور العلمى الواضح فى شتى المجالات .

نقول : إن دراسات الجاحظ وذكر البصرة ، وابن خرداذبة فى كتاب المسالك والممالك ، والطريق من قابس الى المغرب ، وابن الفقيه فى وصف مكة وعجائب العالم ، واليعقوبى فى وصف بغداد ، والبلخى وابن حوقل فى وصف اقليم سجستان ، والأزرقى فى اخبار مكة ، وغير هؤلاء كثير مثل الهمذانى فى وصفه اليمن الخضراء ، والصفدى فى كتابه فضائل مصر والخوارزمى فى ذكر صورة الأرض ، والسرخسى فى كتابه رسالة البحار والمياه والجبال ، والسيرافى الذى كتب وصفاً دقيقاً لرحلاته فى بلاد الهند والصين ، وابن وهب القرشى فى رحلته

للصين ، والكندى فى كتابه « رسم المعمور من الأرض » والمسعودى والبيرونى وابن بطوطة ، وياقوت ، والقزوينى ، والهجرى ، كل هؤلاء كانوا أعلاما وما زالت دراستهم علامات راسخة فى الدراسات الجغرافية ؛ فلقد قدموا للعلم والمعرفة عصارة أذهانهم وأفكارهم ضمن مؤلفات ضخمة ما زالت موضع الإكبار والإعجاب . إن للعرب ولعا بالجغرافيا ، ومن يستعرض أشعار الأقدمين يدرك اهتمامهم بالمنازل والديار ، وذكر الأطلال والمعالم والمرابع والمناحل والجبال والأودية والشعاب والآكام والسهول ، وغير ذلك من المسالك والمرتفعات والمنخفضات والهضبات .

جـ : وما أخال جامعاتنا اليوم حين استعراضها لعلماء الجغرافيا من أسلافنا ممن أسدوا جليل الأثر إلا وهى حريصة على الاستفادة من دراساتهم ، والتى ستبقى متجددة بتجدد الأيام والسنين والأزمان ، وينبغى أن تبذل الجهود ، وأن يتصدى الباحثون الجغرافيون من علمائنا إلى تطوير ما كتبه أولئك بعد التطورات الفكرية ومناهج البحث الحديث .

ولا شك أن ما كتبه أولئك الأعلام الأجلاء كان بالنسبة لعصرهم تطويرا وسبقا هائلا فى العلم والمعرفة ، اقتبسه الغرب ليستفيدوا منه ، أما نحن فقد وقفنا عند هذا الحد ليس إلا .

وليت الأساتذة المختصين فى جامعاتنا ـ وقد أصبحوا والحمد لله على جانب من الثقافة والمعرفة فى هذا الوقت المعاصر ـ يحاولون تمحيص وتحليل ما ورد فى مثل هذه الدراسات من تطور . فأحفاد اولئك العلماء الأسلاف هم أقدر الناس على معرفة الدروب فى الصحراء والسهول والجبال والوديان ، ومن ثم الاستفادة من الطبوغرافية ومميزات كل معلم من هذه المعالم واستثماره اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا .

وإذا تم هذا الأمر ـ أى تمحيص المميزات والسمات الجغرافية لدراسات علماء الجغرافيا ـ فإننا بذلك نحقق أمرين هامين :

الأول : إظهار القيمة العلمية لهذه الدراسات .

الثانى : وضع الجغرافيا ودراسات القدامى فى خدمة العصر الحديث والاستفادة مما أورده أولئك من ملامح نحتاج إلى تبيانها .

وللأسف الشديد فقد اتجه دارسو الجغرافيا فى معظم أبحاثهم فى الوقت الحالى إلى وضع قواعد دراستهم على أسس علمية من مقررات المناهج الغربية ، وهذا ليس عيبا فى حد ذاته ، ولكن المشكلة التى يجب أن نحدّ من تغلغل آثارها السيئة هى مزج دراسات العلماء السابقين من المسلمين مع مثل هذه الدراسات ، والتركيز على دراسة الدروب الجغرافية ، والمسالك والأرض والمياه ، والتى ما زال الكثير من المثقفين ـ ناهيك عن العامة ـ يتجادلون ويتناقشون

بشأنها دون الوصول إلى حل معينّ أو محدد بشأنها رغم أن العلماء الأوائل قد وضعوا لها تعريفاً وتحديداً .

ومزج علم الجغرافيا مع التسميات والعلوم الحديثة والمسميات التى طرأت على بعض المعالم، تمثل فى حد ذاتها أمراً يجب الانتباه إليه ؛ لأن المشكلة فى حد ذاتها لا تنبع من قصر الجهود أو تكاسل فى الرغبة والبحث عن الوصول إلى هذا الهدف .

ولكن المشكلة هى فقدان الحلقة الموصلة بين دراسة هؤلاء، وبين الدراسات الحديثة فى فترة الركود الفكرى التى لفت العالم الاسلامى بين أواخر العصور الوسطى ، وتطور العالم الحديث والمعاصر الذى يدخلنا إلى التاريخ الجغرافى الحديث .

والدراسة الجغرافية ـ كما يفهم ـ هى دراسة تعتمد على النظر والاستقصاء الميدانى فى معظم الأحيان .

فلو درست منطقة من مناطق المملكة العربية السعودية كما وردت فى الكتب الجغرافية ، وقام الطلبة بدراسات ميدانية لهذا الاقليم وحاولوا المقارنة بين ما هو معروف حاليا وما هو مدون فى تلك الكتب لأفادوا واستفادوا . أفادوا العامة والمهتمين بالجغرافيا ، وذلك بوضع الصورة الحقيقية لبعض المسميات ، واستفادوا فى محو الشك والريبة والاختلاف فى مسميات الأماكن ، ومعرفة حدودها ، ومن ثم الانتقال بهذا العلم من مرحلة دراسة ومعرفة واقع موجود إلى مرحلة الاستفادة من هذا الواقع وتحديد معالمه بصورة دقيقة .

إن ميدان الجغرافيا واسع شامل يتسع لأفق ومحيط العالم طوبوغرافيا وبشرياً ، والأشد روعة والأكثر جدوى هو استثمار هذا الأمر ، وإثبات أن المنطقة العربية والإسلامية تستطيع أن تلعب دوراً بارزاً ، حتى تمهد المسرح الجغرافى لظهور مؤثرات جديدة ، ولإثبات أن هذا العالم الموجود على هذا المسرح جدير بأن يلعب دوراً أشد وضوحاً وأقوى تأثيراً من الدور السابق طالما احتفظ بتراثه الجغرافى إسلامياً روحاً وعقيدة ، وعربياً أصالة وعمقا فى التاريخ .

وبعد : فإن تراثنا الجغرافى لا يقف عند حد ، وما زالت كتب علمائنا مورد ثرًا يحوى معلومات جديرة بالعناية والاهتمام .

• المصادر والمراجع •

١ ـ صفة جزيرة العرب ـ لأبى محمد الحسن الهمدانى .
٢ ـ مروج الذهب ـ لأبى الحسن المسعودى .
٣ ـ مسالك الممالك ـ لأبى اسحاق الاصطخرى .
٤ ـ الممالك والمسالك ـ للبكرى .
٥ ـ نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ـ لأبى عبد الله محمد الادريسى .
٦ ـ مقدمة ابن خلدون .
٧ ـ معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع .
٨ ـ معجم البلدان ـ ياقوت الحموى .
٩ ـ تقويم البلدان ـ لأبى الفدا .
١٠ ـ عجائب البلدان ـ للقزوينى .
١١ ـ دور المسلمين فى الجغرافيا ـ نفيس أحمد ترجمة د . فتحى عثمان .
١٢ ـ فى الجغرافيا العربية ـ د . شاكر خصباك .
١٣ ـ الجغرافيا العربية ـ الأمير مصطفى الشهابى .
١٤ ـ أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ـ د . صلاح الدين المنجد .
١٥ ـ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ـ د . زكى محمد حسن .
١٦ ـ الأبحاث الطبيعية فى الجغرافيا العربية ـ د . شاكر خصاك .
١٧ ـ مجلة الجمعية الجغرافية العراقية .